كثير من الذين ارخوا لفترة سقوط دولة المهديه ركزوا اهتمامهم على النشاط الذى كان يحدث خارج السودان وتتبعوا المسيرة التى كان يقودها كتشنر لاعادة فتح السودان ، فجاء كثير مما درسناه عن تاريخنا فى هذه الفترة متابعا لخطوات كتشنر وحملته حتى وصوله بها الى كررى وفتح امدرمان غازيا ، وتعرضوا فى اثناء ذلك الى واقعة عطبره التى انهزم فيها جيش المهديه بقيادة محمود ود احمد ، ولا اظننى اغالى ان قلت ان تاريخنا بهذا الاسلوب ما زاد على كونه تفسيرا لجزء من تاريخ الدولة البريطانية فى جزء من مستعمراتها ومتابعة لتحركات جيش من جيوشها تحت امرة أحد قوادها لتكوين الامبراطوريه البريطانيه .

مسيرة الامير محمود ود احمد هى محاولة للنظر فى تاريخ هذه الفترة من زاوية جديدة ، محاولة لمعرفة ما كان يحدث فى بلادنا فى الوقت الذى كانت فيه حملة كتشنر تتحرك جنوبا لغزو السودان محاولة لمعرفة العوامل الداخليه التى ادت الى سقوط دولة المهدية .

ومسيرة الامير محمود ود احمد لا تقل اهمية عن مسيرة كتشنر من الناحيه التاريخيه ومن ناحية ما تركته من اثر فى المناطق التى مرت عليها ومن ناحية تفسير الاحداث التى تبعتها فان كان المؤرخون قد اهتموا بمسيرة كتشنر لمعرفة نصف الحقيقه التاريخيه فلا اقل من ان نحاول اكمال الصوره لكى تكون الحقيقه التاريخيه كامله وواضحة .

والامير محمود احمد قائد الحمله هو « جبريل بن احمد (١) الذى غير المهدى اسمه من جبريل الى محمود كما فعل مع كثير ممن قابلهم فى ايامه الاولى من ابناء الغرب وابناء الشمال مثل الطنبورى

---

(١) يشير محمود الى هذه التسمية فى واحد من خطاباته للخليفة مهديه ٢١/١/٨/١ من محمود الى الخليفة بتاريخ ١٧ صفر ١٣١٥ .

ود المدويك الذى صار اسمه محمد فضل الله وكذلك محمد الدخير الذى صار اسمه محمد الخير . ولد محمود فى الكلكه « دار الهبانيه » وهو بن عم الخليفه عبد الله وليس ابن اخيه كما يذكر رتشرد هل فى كتابه Bibliographical Dicticnary OF The Anglo Egyptian Sudan

حضر محمود لمقابلة المهدى مع ابن عمه الخليفة عبد الله وتبعه الى ان انتصرت المهدية ولازمه بعد ذلك الى ان اختاره الخليفة اميراً على الغرب فى سنة ١٣٠٨ هـ خلفا للامير عثمان آدم « جانوه » ، والفترة التى قضاها محمود أميراً على الغرب ١٣٠٨ ــ ١٣١٤ حفلت بكثير من الغارات على القبائل المختلفة ولم تبق قبيله من القبائل لم تصلها غاره أو سريه من سرايا محمود ، ومع هذا نجد ان الاستاذ موسى المبارك فى رسالته « تاريخ دارفور السياسى » يقول ان فترة امارة محمود كانت فترة سلام فى الغرب بالمقارنة لفترة سلفه عثمان « جانوه » حتى قال عنه الناس « محمود عسل وعثمان بصل » .

بدأت مسيرة محمود ود احمد الى الشمال فى سنة ١٣١٤ هـ عندما استدعاه الخليفة وطلب منه استنفار قبائل الغرب والحضور بها سريعا لمقابلة جيوش كتشنر فقد تأكد لديه بعد واقعة الحفير « ٩ ربيع ثانى ١٣١٤ » واجلاء محمد بشاره عن دنقلا ان كتشنر لابد واصل الى امدرمان . وقد نصحه ابنه شيخ الدين بذلك : « اعلم يقين ان الانجليز لهم تار كبير عندك تار هكس وتار غوردون وتارات الانجليز الذين قتلوهم بارض السودان والمصريين لهم تار كبير فى كافة جيوشهم من تركى الى مصرى بخلاف ملك بلادهم وحاضرين الآن لاجل اخذ الثار وملك البلاد وانت ملك البلاد لا غيرك وانا انصح لك كل شيء حيث انى اخبر بحقيقة الحال وبقيام هذا الملوك من بلادهم كونه عندى من اعطنى الاخبار وكافت أولاد البلد الذين عليهم المدار عندى ودايما يعطونى الاخبار ولا سيما انى مطالع التاريخ وعارف سير الملوك السابقين الذين ملكوا قبلنا » (١)

(١) مخطوطة يوسف ميخائيل عن المهدية والتركية ١٩٣٤ ــ دار الوثائق المركزية الخرطوم .

وكان لابد للخليفة من الاستعداد لملاقاة كتشنر وتنازعته فى ذلك فكرتان : احداهما الاستعداد فى مكانه وجمع الجيوش والعيوش وتحصين امدرمان والانتظار فيها وقد امر الامير يونس الدكيم بجمع من معه ومامعه والرجوع عن بربر وكذلك أمر احمد السنى بجمع العيوش من الجزيرة واحضارها الى امدرمان ، وفكرة أخرى هى الاستعداد وارسال جيش لمقابلة كتشنر فى الشمال ، وفى سنة ١٣١٤ قرر الخليفة ارسال جيش لمقابلة كتشنر فى المتمه واختار لهذا الغرض جيشا مكونا من قبائل الغرب يقوده ابن عمه محمود احمد .

فى بداية سنة ١٣١٤ هـ امر الخليفة محمود احمد باستنفار اهل الغرب للجهاد والحضور بهم الى امدرمان بعد ان يترك حامية صغيره فى دارفور وأخرى مثلها فى كردفان وشرع محمود فى ذلك : « نبدى سيدى ان عبدكم منذ حضوره بهذه الجهات فى هذه المره لم يزل ملتفتا نيله ونهاره فى ظعنه وقراره الى مابه اتساع امر الدين وادخال العباد فيه بمهما امكن من الاوجه الموصله الى تمام المراد ومن ضمن ذلك فاننا فى هذين اليومين ارسلنا وكاتبنا كافة القبائل التى هى حرية بالقيام للهجرة مثل الحمر برينقا والدين بجهة كيلك وغيرهما من جهاتهما وكمثل المسيرية الذين الذين بجهة الخلاء وكمثل باقى الرزيقات المتآخرين بجهات البحر وجهات شكا وكمثل الهبانية الذين بالكلكه والذين بداره وغيرهما وكلا منهم حررنا له من الدعاية بالترغيب والاعتناء بامره ماهو كفيل بقيامه وقطع علائقه ان شاء الله تعالى فى هذه الايام وفى عزم عبدكم انه يستمر الاجتهاد فى امر الهجره حتى لا يترك شىء من هذه القبائل التى هى مظنة الرغبة فى الدين (١) ، ولكن محمود لم يجد الامر بالسهولة التى كان يرجوها ، فهذه القبائل التى اتى لاستنفارها لمناصرته هى نفس القبائل التى زعزعتها جيوشه بين سنة ١٣٠٨ هـ وسنة ١٣١٤ هـ فالرزيقات والميدوب ارسل لهم فضل النبى اصيل فلاحقهم من منهل الى منهل حتى شتت شملهم وخرب ديارهم اما التعايشه فانه يقول فيهم

(١) مهديه ١/١٥/٤/٢٦٥ من محمود الى الخليفه بتاريخ ٢٩ ربيع اول سنة ١٣١٤ هـ .

للخليفة « ان امركم الكريم الوارد فى ٤ شعبـان بالالتفات لخراب دار التعايشه وان لا نترك احدا يسكن بها وتنبيه كافة القبائل بذلك قـد علم والحال انها لا وجود لاحد بها ماعدا جهة طوال التى بها بنى هلبـه جماعة رحمة الله الوالى وقد حررنا لمحمـد جوده بالمرور عليهـا (١) وكذلك كان الحال بالنسبة للحمر والحوازمه والبديرية والمسيرية وبنى هلبه والقور والمساليت والبرتى وغيرهم كـل هذه القبائل نالها بطش محمود بطريقة أو بأخرى ولذلك لم يكن مستغربا عدم تلبيتها لدعوتـه لها للجهاد فهربوا وعمدوا للمراوغه والمماطله ويكتب محمود مشيرا الى ذلك فى خطابه للخليفة بتاريخ ٢٩ ربيع اول ١٣١٤ هـ « وبالمفاوضه معهم علم صريحا من قولهم وتحقق من شاهد احوالهم انهم الجميع لا رغبه لهم فى الهجرة وماذاك الا لما جبلوا عليه من حب الوطـن الذى هـو طبيعة الانسان » (٢) ورغم ما بذله محمود من جهـد فى الوصول اليهم فى ديارهم لاجبارهم على الانضمام للارباع فانهم كانوا دائمـا يجـدون الحيلة للهروب والرجوع الى ديارهم مرة أخرى . « نبدى سيدى انـه سبق العرض منا لجنابكم بان المسيرية بعد وصولهم عندنا ظهرت منهم عدم الرغبه للهجرة لاخر ماذكرناه والآن قد انكشفت حقيقتهم انكشافا تاما وذلك اننا بعد قيامنا من النهود نحو الغرب بثلاثة مراحل لحقنـا مرسول من طرف الاخ الدليـل ابراهيم الذى اشـير له من جنابكم بالحضور معهم يذكر ان رؤساء المسيرية كلهم تغيبوا عنه ولم يكن معه منهم احد حتى بخيت بريمه تغيب فبوقته كشفنا عليهم فيمن معنا فمـا وجدنا الا اربعة انفار وغيرهم لم نجد احد من المسـيرية لا من اعيانهم ولا من سايرهم » . (٣) واضطر محمود بعد ذلك لاخذ قبائل كردفـان على حالة السجن واجبارهم على البقاء تحت الرايات « ولما علم لنا امرهم

---

(١) مهديه ٧٣/١/٨/١ مـــن محمود الى الخليفه بتاريخ ١٥ شوال سنة ١٣١٣ هـ .

(٢) راجع خطابـات محمـود الى الخليفه بين السـنين ١٣٠٨ هـ الى ١٣١٤ هـ .

(٣) مهدية ٢٦٢/٤/١٥/١ مـــن محمود الى الخليفه بتاريخ ٢٩ ربيـع اول سنة ١٣١٤ هـ .

فالباقين منهم استحصلنا عليهم جميعهم ووضعناهم بالسجن ولم نترك واحدا منهم وكذلك حررنا لكافة الاخوان عمال الارباع بقبض من معهم واستلام الخيول منهم (١) والمحافظة عليهم حتى الذين معنا خاصة سجناهم .

وحاول محمود اسلوبا اخرا مع قبائل دارفور هو اسلوب الحيله ولكنه أيضا لم يفلح فى ذلك ونراه يفصل ذلك للخليفة بقوله « ثم بعد وصولنا بالفاشر له ٢ جماد اول سنة ١٣١٤ هـ بذلنا جهدنا فى جمع الاطراف وحزم امر الجبهة كما ومن قبل وصولنا حررنا للانصار بالاستعداد سرا وحررنا بحضور الرجال اعنى اهل الوطن من كل جهة لاجل قيامنا بهم بحالة العجلة ولدى وصولنا وجدناهم جميعهم بالمركز وشكرناهم وذاكرناهم بما زادهم انشراحا وافهمناهم فى ضمن ذلك اننا متوجهون غزوة لجبال الصعيد ومنها للزيارة والتنور والمزاكرة والعودة لهنا قريبا كما اشير لنا فمع ذلك لم يحصل منهم ثبات على السفر وصاروا يرتجعون لاوطانهم شيء فشيء حتى لم يبق منهم الا القليل » (٢) وعمد محمود بعد ذلك الى طرق أخرى لاجبارهم على الذهاب معه فاخذ عائلاتهم وحافظ عليها ليجبرهم على متابعتها « ولم نرى فى اوجه الحزم ابلغ من قيامهم بعايلاتهم وتسليم كل طائفة منهم الى احد الارباع لغاية وصولها (٣) ومع كل ذلك لم يطمئن محمود الى بقاء الناس تحت الرايات فعمد الى استعمال الكثير من الاحتياطات للمحافظة عليهم « كذلك كافة من احضرناهم فاننا فى غاية الشفقه عليهم بالمحافظة لهم تاره تتقدم على بعضهم وتاره نسير خلفهم وتاره تتأخر عنهم وتاره نميل

---

(١) مهديه ١/١٥/٤/٢٦٧ من محمود الى الخليفه بتاريخ ٣ ربيع آخر سنة ١٣١٤ هـ .

(٢) مهديه ١/١٥/٤/٢٧١ من محمود الى الخليفه بتاريخ ١٤ رجب سنة ١٣١٤ هـ .

(٣) مهديه ١/١٥/٤/١/٢٧٠ من محمود الى الخليفه بتاريخ ٢٠ جماد آخر سنة ١٣١٤ .

بالطريق الشمالى وتارة نسلك طريق الصعيد كل ذلك بحسب المصالح الوقتية وما يقتضيه الحزم فى ضم الجيش ووصوله لكم (١)

وتمكن محمود بطريقة وبأخرى ان يجمع اعدادا وافره واجبرهم على الانضمام معه فى الجيش المهاجر نحو امدرمان .

فكان له ما اراد من الناحية العددية ولكنه كان جيشاً يفتقر الى كثير من مقومات الجيوش من تدريب وتنظيم لاحتياجات الجيش من ناحية المؤن والذخائر واساليب لرفع الروح المعنوية ، ومنذ تحركه من دارفور قابلت محمود مشاكل المؤن ووجد صعوبة شديدة فى ايجاد الغذاء والمياه الكافيه لتلك الاعداد الكبيرة التى كانت تتبعه خصوصا وان معها كثيراً من النساء والاطفال ــ العوائل التى اخذها معه لاجبار اهلها على الحضور وقد سبب كثيرا من الضيق على كل جهة مرّ بها ويعزى ذلك الى انه لم يكن هناك اسلوب محدد متبع فى توفير المؤن للجيوش فى المهدية ولم يتعود محمود على قيادة جيش كبير بهذا العدد وبهذه الضخامة مع تجهيز كامل لمؤنه وكان الاسلوب المتبع من قبل ذلك هو تجهيز سرايا صغيرة لغزوات محدده فى مواسم خاصة يجتمع افرادها عند اللزوم ويتفرقوا بعد نهاية الغزوة تماما كما كان يحدث فى الغارات القبلية السابقة لدولة المهدية وما ورد فى خطاب الزبير الفحل لمحمود احمد فى ١٨ شعبان سنة ١٣١١ يرمى ضوءاً على ذلك « واما عن الانصار جماعتنا كانوا عددهم ربعمايه وخمسون ٤٥٠ نفر والان تفرقوا جميعهم بالجهات من اجل معايشهم الضرورية كمثل ام بل والنهود والاضيه والفاشر ايضا وما بقى الحاله هذه معانا الا ماية نفر فقط لاغيرهم فمن بعد صرف الاسلحة والجبخانة والاهبه اللازمه من سيادتكم ويلقهم ذلك يحضروا جميعهم فى برهة ايام قلائل (٢) واذا تابعنا تحركات محمود احمد بين١٣٠٨الى١٣١٤ نجد انه تبع نفس الاسلوب تقريبا اذ انه

---

(١) نفس المصدر السابق .
(٢) مهديه ٥٥/١/١٥/١ من محمود الى الخليفه بتاريخ ١٨ شعبان سنة ١٣١١ هـ .

كان يجمع جيشه ليغير على جهة من الجهات ثم يعود الى الفاشر أو الابيض قبل حلول فصل الخريف فيتفرق الجيش من اجل المعايش ليعود مرة أخرى فى موسم الغزوه القادمه ولذلك لم يهتم محمود كثيرا بمسألة المؤن وخطوط الامدادات بينه وبين قاعدته أو بينه وبين امدرمان وكان عندما تقابله مشكلة من مشاكل المؤن يلجأ الى الاسلوب الذى تعود عليه وهو الاغاره القبليه « نبدى سيدى ان الجيش الذى مع عيسى زكريا عدده وافر وانه حصلت له المضايقة فى المعايش وانه لو اقام بهم فى المركز لاتحصل لهم الراحة ويتفرقوا بالجهات وخشية من شتاتهم فانه يرجو الاذن لهم بضرب جبل الدلنج للتنفيس عليهم » (١) وكانت الغنيمة فى هذه الغارات جزء متمما للحروب وواحدا من طقوسها المعترف بها وكانت كل خطابات محمود للخليفه تنتهى تقريبا بجملة « وعادت خيولنا سالمه غانمه » حتى استن الخليفه سنة للجيوش المحاربة هى ان « رزق المجاهد فى سيفه » وقد تسبب كل ذلك فى ان المجاهدين اضطروا الى مد ايديهم على حقوق العباد . ونتج من كل ذلك ان محمودا وجد نفسه فى وضع غاية فى الصعوبه بعدم المؤن وعدم امكانية وصولها بانتظام وعدم امكانية السيطرة على جنوده الجياع الذين لم يجدوا شيئا غير التناول من حقوق العباد وفى الشمال تسبب له ذلك فى كثير من المتاعب بل ان مسألة المؤن صارت شغل محمود الشاغل وهمه الاكبر « نبدى سيدى ان كافة الانصار الذين معنا من أولاد العرب والجهادية كلهم شكوا لنا بلسان الحال والمقال فى امر عدم الغلال وظهر عليهم من الضرر مالا طاقة لهم بالتصبر عليه بعد هذا وبالاخص يومنا هذا تفقدناهم بميدان العرضه فاذا الموجود من الجيش نصفه أو اقل وكلهم توجهوا للشرق لجلب الغلال ولا يخفى ما فى حالة الفزع للغلال من التفرق وعدم الحزم وكونهم عرضه للضياع بحصول ادنى هجوم من العدو » (٢)

---

(١) مهديه ١/١٤/١/٦٥ من محمود الى الخليفه بتاريخ ١٨ شوال سنة ١٣٠٨ هـ .

(٢) مهديه ١/٨/٢/١٤٠ من محمود الى الخليفه بتاريخ ١٣ رجب سنة ١٣١٥ هـ .

ولكن كان يصله دائما رد الخليفه على مثل هذه الخطابات مخيبا لامله محطما لاحلامه فى وصول المدد اليه « وليكن الان الاجتهاد منكم بالهمم العاليه فى تذكير الجيش فى الثبات باماكنه والوثوق بالله الرازق والاعتماد عليه وسيجعل الله بعد عسر يسرا فان له المخارج والخزاين الواسعة وهو ذو الفضل العظيم ومادام انكم بصدد جهاد الاعداء فان شاء الله قريبا يحصل ما فيه الفرج ونفى الحرج فثقوا بالله ايها الاعوان وذكروا بذلك جميع من معكم من الاصحاب وقفوا للعدوا بكل مرصد » (١) ولم يفلح محمود قط فى تنظيم امر المؤن ولا فى اقناع الخليفة باهميتها حتى قابل كتشنر بجيش جائع عار منقطع بين الجهات كما سماهم فى خطابه للخليفه «سيدى ان الجيش الذى معبدكم كل من فيه من الرجال فهم أهل عزم فى الحرب ولولا ذلك لما صابروا هذه المدة حالة كونهم جايعين عاريين منقطعين بين الجهات .... وبوجود هذه الصفات المتقدمة فيهم وزيادة عنها لم تسمح نفس داعيكم ان يرميهم الى الضياع وليس شأننا الخوف عليهم من القتال وانما الخوف من الجوع ويحق لنا ان نخاف لان الجيش الان لا يملك عشاء ليلة واحده فان الجوع قد تمكن من الجيش ، وعلى ذلك فاذا حصل شيىء من الاصحاب الذين معنا من ارتجاعهم من الجهاد او فرارهم لجهة الاعداء او غيرها لا قدر الله تعالى ذلك فنكون سيدى غير مواخذون بما يحصل فى ذلك ومعفو عنا فيه ونسأل الله الستر والسداد آمين والسلام » (٢)

ولم تكن صعوبات محمود قاصره على الغذاءات فقط ، فان حاله بالنسبه للاسلحه والذخيره كان ايضا غير محتمل اذ انه لم يفلح فى تنظيم وصولها له وفشل فيما طلبه من الخليفه الذى كان يكتب له « ومع ذلك فليكن القلب واثقا بالله فانه سبحانه يقول ، وما النصر الا من عند الله وهذه الامه قتالها هو بالدين ليس بالدنيه لان الدنيا لا تغلب دنيا فافهم

---

(١) مهديه ١٣٦/٤/٢٨/١ ـ ١٥٢ من الخليفه الى محمود بتاريخ ٥ رجب ـ ١٨ رجب سنة ١٣١٥ هـ .

(٢) مهديه ٢١٧/٢/٨/١ من محمود الى الخليفه بتاريخ ١٤ شوال سنة ١٣١٥ هـ .

ذلك واعلم انا نرى ان تقول عوضا عـن الالف بندقيه توكلت على رب النيه بخالص القلب وصفاء النيه فان الله يحب المتوكلين » (١) .

واذا اضفنا الى هذه الصعوبات ان جيش محمـود كان يفتقر الى ابسط قواعد التدريبات العسكريه الحديثه ، وانه كان مفككا ومكونا من كثير من القبائل المتنافره والمتباغضه فيما بينها والمجبره على الجهاد ، واذا اضفنا كذلك ان جيش محمود كان يسير بدون اى خطه مدروسـه منذ قيامه من الفاشر حتى ارهق افراده بكثرة التحركات عديمة الفائده، اذا عرفنا كل ذلك اتضحت لنا الصوره التى كان عليها جيش محمود الذى وصل الى « النخيله » لمقابلة جيش كتشنر ، وعرفنا السبب الذى دعـا محمودا الى حالة من اليأس جعلته يسمح لبعض جنـوده بالرجوع الى امدرمان خوفا عليهم ان يدفعهم الجوع الى اعدائه « انه لا يخفى علمكم الشريف ان اعـداء الله الآن مقيمـون فى قيـاقرهم وحـالهم فى التربص والتخيلات معلومه والدنيا عندهم كثيره وايضا حـال الجيش معروفه لدى سيادتكم فى كونه متجمعا من جهـات متعـدده وكونهم متفاوتون فى رسوخ القدم فى الصحبه وفى الصبر على الشدائد وان كان الظن بهم جميلا على العموم ولا يبعد ان يستعملوا هؤلاء الكفره بعـد وصولنا اليهم مجرد الخداع بالدنيا وهذه الحاله اعنى المخادعات أخوف ما نخاف على الانصار هى ولم نرى وجها لتسديدها وراحة الفكر منها سوى ان نعلم الاصحاب بان قيامنا هو لله ولا لشيىء آخر ومن لـم يطق التعب فانه مأذون بالرجوع الى خليفة المهدى عليه السلام فـلا حرج عليه فى ذلك حتى ومن يكن فى نفسه شيىء يرجع لصوبكم الكريم ولا يتوجه للكفره ويكون زياده لهم وفشلا للجيش وايضـا فان ضبط الجيش الذى يمثل هذه الحاله ليس فى الامكان ولا يتأتى ضبطه مـع قربـه مـن العـدو (٢)

---

(١) مهديه ١/٨/١/٥٤ مـن الخليفه الى محمود بتاريخ ٨ ربيـع اول سنة ١٣١٥ هـ .

(٢) مهديه ١/٨/٢/٢١٨ مـن محمود الى الخليفه بتاريخ ١٤ شوال سنة ١٣١٥ هـ .

وليت مشاكل محمود وقفت عند هذا الحـد بل انه اضاف اليها مشكلة أخرى وهى «واقعة المتمه» والتى كان من نتائجها ان وجد محمود نفسه وسط ارض لايرحب بهاهلها ولايقدمون اليه اى مساعدات بل كانوا عونـا لاعدائه عليه •

واقعة المتمه كانت معركه فى غير معترك ولم يكن هناك وجوب لها بل كان يمكن تفاديها وحقن دماء كثير من السودانيين الذين ماتوا هناك ولا يدرى احـد على وجه التحديـد السبب المباشر الذى دعا عبد الله ود سعد لاعلان عصيانه على المهديه فى الوقت الذى كان فيه محمود يستعد للسير بجيشه شمـالا نحو المتمه وهنـاك روايات شتى تذكر فى هذا المجال •

يحدثنا تشرشل فى كتابه "The River War" عـن روايه كثيرة التأثر بقصة الملك نمر مع اسماعيل بن محمد على ، نورد ترجمتهـا هنا : « وطد الخليفه عبد الله عزمه على ارسال جيش كردفان للاستيلاء عـلى المتمه ومن ثم يجبر قبيلة الجعليين على الخضوع أو يدفعها دفعـا الى العصيان والثوره من قبل ان تصلهم الجيوش المصريه وتتمكن من مد يد المساعده لهم، ، واستدعى الخليفة زعيم الجعليين عبد الله ود سـعد الى امدرمان وقال له ان « الترك » يهددون ارض الجعليين وانه حبا فى الخير لهم لانهم من انصار المهدى وانهم من المسلمين الصادقين فانـه يجب الدفاع عنهم من اعدائهم الترك الغـزاه • واحنى زعيم الجعليـين رأسه موافقا ، واضاف الخليفه قائلا ان محمودا وجيشه سيتم ارسالهم الى المتمه لهذا الغرض وان عبد الله يمكنه ان يثبت ولاءه بتجهيـز المؤن والاقامه لهم ، ثم اشار الخليفه بنهاية المقابله • ولكن زعيم الجعليين كانت عنده الجرأه التى تمكنه من الاحتجاج فاكد للخليفة ولاءه ومقدرة قبيلته على صد اعدائها ورجاه الا يثقل عليهم بفرض جيش ليقيم بمنطقتهم وبالغ فى وصف سؤ الحاله فى المتمه وجور الزمان عليها ، ثم طلب العفو من الخليفة لانه تجرأ بمثل ذلك الاحتجاج •

وتملك الخليفه الغضب حتى اخرجـه عن وقاره ولم يستطع كبح عواطفه فشرع فى حديث طويل مسيىء قال فيه انه ظل يتشكك فى ولاء عبد الله منذ امد بعيد وانه يستحق الموت المشين وان قبيلته وصمه فى جبين هـذه الارض وانه يرجـو ان يصلهم محمـود ليؤدبهم ويؤدب نساءهم وانسحب عبد الله من مجلس الخليفة وهو يتميز غيظا ورجـع الـى المتمـه •

وبعد ان جمع شيوخ قبيلته اخبرهم بما حدث له وبنوايا الخليفة • ولم يكونوا بحاجة لتعريفهم بان نزول جيش محمود بالمتمه كان يعنى التسلط عليهم ونهب ممتلكاتهم وخـراب بيوتهم واغتصـاب نسائهم واتفقوا على العصيان والانضمام الى القوات المصرية • » (١)

والروايه الثانية يوردها اهل المنطقة نفسها وفيها كثـير من محاولة ابعاد التهمه والخطأ عن عبد الله ود سـعد واظهار الخليفـة بالرغبة فى التشفى وسـوء النيه واستعمال كثير من اساليب الدكتاتوريه فيقولون ان الخليفه استدعى عبد الله ود سعد الى امدرمان وكان ينوى ان يقتله بدس السم له فى الكبده النيئه مثلما فعل مع اخيه على ود سعد مـن قبل ، ولكن كانت هناك صداقه حميمه بين عبد الله ود سعد وبين عثمان شيخ الدين ابن الخليفة عبد الله حتمت على شيخ الدين هذا اخطـار عبد الله ود سعد بالمؤامره ومساعدته فى الهروب الى المتمـه ليـلا ، وعندما وصل عبد الله الى اهله اخبرهم بما حدث له « فعرضوا » معه واعلنوا عصيانهم على المهدية « يتفق مع هذه الرواية ما اورده ابراهيم فوزى باشا فى (ذكر موت الحاج على سعد) حول قصة مقتل على سعد (بدس السم له فى طعامه) (٢) وكذلك يتفـق معها يوسف ميخائيل فى مسألة الهروب ليلا ولكنه يختلف معها فى ان الذى ساعد عبد الله ودسعد

---

(١) مترجم عن : Churhchiee, The River waar, P. 187 - 8

(٢) ــ ابراهيم فـوزى باشـا :السودان بين يدى غوردون وكتشنر الجزء الثانى ص ٢١٤ •

على الهـروب هو يعقـوب اخو الخليفة بعـد ان رشاه ود سعد بمبلغ مـن المـال (١) ٠

وفى الروايتين المذكورتين نقطة لابد من توضيحها وهى انهما تتفقان فى ان خروج عبد الله ود سعد من امدرمان فيه ما يدعو الخليفة للريبة فى امره والحدر من ناحيته وذلك يفرض عليه ان يحـذر محمود وجيشـه قبل ارسالهم للمتمه ويفرض عليه ان يمدهم بالاسلحة ويعدهم لمقابلة اى احتمالات ولكننا نجد عكس ذلك اذ ان محمودا وجيشه تركوا امدرمان نحو المتمه وهم فى غاية الطمأنينة والاسترخاء ٠

والرواية الثالثة هى رواية نعوم شقير التى يقول فيها « هذا وكان الخليفة لما علم بانهزام ود بشاره فى دنقلا اسـتدعى اليه عبـد الله ود سعد امير الجعليين وفرض عليه عددا معلوما مـن اهله يستنفرهم للجهاد وقدرا معينا من المؤن يقدمها للجيش المنوى ارسـاله الى المتمه فثقل الطلب على عبد الله ود سعد وقد طالما ارهقه الخليفة من قبـل فعقد النيه على عصيانه ولكنه اظهر الطاعه وعاد الى المتمه فجمع كبـار قومه واسرّ اليهم ما نوى فمن وافقه ضـمه الى جيشه ومـن لم يوافقه استحلفه على كتم السر فاجتمع اليه نحو ٣٠٠ رجـل من اهله الادنين وارسل فى طلب المدد من جيش الحكومه فى دنقلا وكان له عدو من اهله يدعى احمد ود حمزه فوشى بـه الى الخليفه وكان محمـود اذ ذاك فى كردى وجيشه فى طريق المتمه فامره الخليفة ان يلحق بجيشه فى الحال ويسحق عبد الله ود سعد قبل وصول المدد اليه من دنقلا فجد محمود السير حتى وصل المتمه بجميع جيشه فى فجر ١ يوليـو سـنة ١٨٩٧ « ٢٦ محرم ١٣١٥ » فاحاط بها من كل الجهات وابتدرها القتـال بدون ان يدعوها الى التسليم وكان عبد الله ود سعد قـد تحصن فى منازل المتمه الجنوبية وفتح فيها المزاغل فراى انصاره انهم هالكون لا محاله فاشاروا عليه بالفرار الى دنقلا حتى اذا ما قدم الجيش لمحاربة الخليفه

---

(١) مخطوطة يوسف ميخائيـل عن المهديه والتركيه ١٩٣٤ ص١٠٤ ٠

عادوا معه فقال دعونى من الفرار وعاره فانى كلما ذكرت حادثة الملك نمر وفراره من وجه الدفتردار ضاقت على الارض بما رحبت وتمنيت الموت فلنمت هنا أو نحيا هنا وشرع فى اطلاق النار » (١) • والروايه أيضا فيها اثر واضح من قصة الملك نمر مع اسماعيل بن محمد على فى طلب الخليفة من عبد الله ود سعد عددا معلوما من اهله وقدرا من المؤن للجيش وكذلك فى ان عبد الله ود سعد مثل الملك نمر اظهر الولاء واضمر العصيان • وكذلك نجد ان نعوم شقير يتأثر بالرواية الشعبية « حارقانى قومة نمر من شندى » ولكن فى غير الموضوع الذى تذكرها فيه الرواية الشعبية فنعوم شقير يذكرها بعد بداية المعركة بينما تذكرها الرواية الشعبية قبل بدايتها وعندما طلب الخليفة من اهل المتمه الرحول عنها الى اى جهة أخرى •

والرواية الرابعة هى التى يوردها هولت والتى نترجمها هنا « قرر الخليفة عبد الله واعوانه بناء على تجربتهم السابقة مع حملة غردون فى عام ١٨٨٤ ــ ٨٥م (١٣٠١ ــ ١٣٠٢ هـ) ارسال قوات محمود لتعسكر فى المتمه حيث تتصل الطرق الواردة من دنقلا عبر الصحراء عن طريق جقدول وطريق ابو طليح مع النيل • وهذه المدينة على اى حال، هى عاصمة قبائل الجعليين الذين يشك عبد الله فى ولائهم • وبعد مداولة مع زعيمهم عبد الله سعد فرح اصدر الخليفة امرا الى اهالى المتمه بان يتحولوا جميعهم ومعهم كل ما يمكن حمله من امتعتهم الى اى جهة يختارونها على الضفة الشرقية •

وعندما ووجه بهذا الامر قرر عبد الله سعد واهاليه العصيان والحرب ووصلت الاخبار الى محمود فى يوم ٢٢ محرم سنة ١٣١٥ (٢٣ يونيو سنة ١٨٩٧) وفى اليوم التالى وصل اثنان من رسل عبد الله سعد الى مروى ووضعوا بين يدى كتشنر طلب زعيمهم امداده بالسلاح والمؤن وبالرجال ان امكن ذلك لمساعدتهم فى ثورتهم على المهدية » (٢) •

(١) نعوم شقير : جغرافية وتاريخ السودان ص ١٢٢٥ (طبعة بيروت ١٩٦٧) •

(٢) Holt, P. M., The Mahdist Slate in The Sudan ,, PP 213 - 14

الروايات الاربعه تجمع على استدعاء الخليفه عبد الله لزعيم الجعليين عبد الله ود سعد الى امدرمان ثم تختلف فيما حدث بعد ذلك فبعضها نظر الى قصة الملك نمر مع اسماعيل بن محمد على وصاغ رواية كثيره التأثر بها والبعض الآخر اعتمد على القصص التى تروى عن بطش الخليفة ببعض من كانوا يخالفونه الرأى والطرق التى كان يستعملها فى التخلص منهم وصاغ رواية على نهجها • ولم تساعد الروايات الشعبية كثيرا فقول عبد الله ود سعد « حارقانى قومة نمر من شندى » يورده البعض لتبرير عصيان عبد الله ود سعد لامر الخليفة باجلاء المتمه والبعض الآخر يورده على اساس انه قيل بعد ان بدأت الحرب •

الارجح ان يكون الخليفة قد استدعى عبد الله ود سعد واوضح له انه ينوى ارسال جيش محمود ليعسكر فى المتمه وامره كما امر اخاه على من قبل ابان حملة النجومى بجمع شبان الجعليين وان ينضم بهم لجيش محمود ويبعد العواجز والنساء والاطفال وهذا الامر سهل التنفيذ بالنسبة للقبائل الرعوية فى الغرب فقد اعتادت على كثرة التحركات اما بالنسبة لقبيلة زراعية مثل قبائل الجعليين فان مثل هذا الامر يعنى خراب ديارها وعمرانها وزرعها فوقفوا ضد التنفيذ وكتبوا لكافة فروع القبيلة « انه قد اتفقت كلمة الاهل بقسمى المتمه والزيداب على حماية العروض كالنساء والاولاد من امكواك واشقر الدار وانه يلزمكم الحضور بكافة رجالكم أو تحاموا على انفسكم بمحلكم لحقن الدموم (١) •

ومعركة المتمه نفسها لم تدم طويلا فقد كان جيش محمود كبيرا جدا بالنسبة لمن اجتمع مع عبد الله ود سعد ولكن ما تبع الواقعة هو الذى كان له اسوا الاثر فى نفوس اهل المنطقة وكما ذكرنا سابقا فان جيش محمود احضر اغلبه من اهل الغرب الذين كانت الاغارة جزءا من حياتهم ولم يعودهم محمود فى حروبه السابقة غير ذلك فلا عجب ان

---

(١) مهديه ٣/١/١/٨/١ من محمود الى الخليفه بتاريخ ٢٦ محرم سنة ١٣١٥ هـ .

وجد صعوبة فى السيطرة عليهم بعد واقعةالمتمه فنجده يشكو مر الشكوى من اهتمامهم بالغنائم واخذهم لحقوق العباد رغم تحذيره المتكرر لهم ورغم ارشادات الخليفه المتواصله اليهم .. « فما كان من الاصحاب الا خروجهم ثله بعد ثله مشاه وركبانا غربا وشرقا حتى اتو عليها وجعلوها حصيدا كان لم تغن بالامس واستولوا على النساء بصفات منكره ينفر عنها الطبع ويحرمها الشرع نحو اخذها لتحمل الماء على رأسها لسقاية الحصان أو حمل الغلال مع ان البحر قريب ولا هناك داعى لهذا الامر سوى محض الخلاف للاوامر » (١) .

ويبدو ان نعوم شقير قد استند على الجزء الخاص بالنساء فى رسالة محمود وبنى عليه رواية مازال يتناقلها الناس حتى اليوم عن ان كثيرا من فتيات المتمه قد انتحرن برمى انفسهن فى النيل ومتن غرقا خوفا من وقوعهن اسيرات فى ايدى الانصار ولكنا نعتقد ان هذه الرواية مبالغفيها بعض الشىء فالانتحار شىء غير مالوف عند السودانيين بل هو مكروه عندهم ومخالف لتعاليمهم الاسلامية والخلقية كما ان الاحصائيات باعداد النساء اللائى ارسلهن محمود الى الخليفة كانت تدل على أنه لم يمت منهن الكثير فقد ارسل حوالى ٢٫٥٧٠ امرأة من غير كبيرات السن والصغار اللائى (لا ارب للرجال فيهن) على حد تعبير محمود ، وحتى هؤلاء فان رسائل محمود تؤكد انه « حفظهن على حالة الصيانة والستر » بالقرب من شاطىء النيل ومعهن رجل من اهالى المتمه هو على محمد تاى الله ، وقد قابلت واحده من قريبات على محمد تاى الله هذا فى المتمه واكدت لى انها كانت صغيرة السن فى ذلك الوقت وانها تذكر اقامتهن بالقرب من « جنينة ود كريم الدين » ولكنها لاتذكر انتحار بعض الفتيات .

ولكن مهما كان من امر فان واقعة المتمة وما تبعها من خراب ودمار فى تلك المنطقة امتد اثره حتى وصل الى بربر وابار جقدول وشمل المشرق

---

(١) مهديه ٣٠/١/٨/١ من محمود الى الخليفه ليلة ٢٤ صفر ١٣١٥ هـ .

والمغرب الا جهات المجاذيب ، كل ذلك تـرك اثرا سيئا فى نفوس الناس ووضع محمودا فى وضع لا يحسد عليه ، وبدلا من ان يكون ـ كجيوش المهدية فى ايامها الاولى بين اهله وبين احبابه ـ وجد محمود نفسه على نقيض ذلك بين قوم يرغبون فى هلاكه وشتات شمله • كذلك كان مـن نتيجة ذلك الخراب ان صارت المنطقة قفرا وزادت قحلا على قحلهـا وقلت المؤن فيها والعيوش حتى اضطر محمود اضطرارا الى الرحيل عنها جائعا لا يملك قوت يومه متجها نحو النخيله لمقابلة كتشنر فيها ••

وبوصول محمود الى النخيلة انتهت المرحلة الاخيرة من مسيرته الى نتيجتها الحتمية بهلاك جيشـه واسره هو وبعض امراء جيشـه فى الموقعة التى تعرف فى كثير من كتب التاريخ بواقعـة عطبرة أو واقعـة النخيله وهى قرية صغيرة على نهر عطبرة •

وواقعة النخيلة اذا ما قيست بما سبقها وما تبعها من معارك مـن ناحية الفنون العسكرية نجد انها لاتفرض نفسها على الدارسـين بـل العكس اذ يجد الدارس نفسه مائلا عنها الى سواها راغبا فى دراسة غيرها من المواقع الاخرى مثل واقعة شيكان وواقعة كرى أو واقعة توفريك ، وبالرغم من ان محمودا قد تبعه كثير من قواد جيوش المهدية واحسنهم دراية بامور الحروب ، الا انهم فى هـذه الواقعة بالذات لـم يفعلوا اكثر من انتظار الهزيمة النكراء والضربة القاضية ولم يظهر كتشنر أيضا اى مقدرة عسكرية فائقة بل ان كثيرا ممن يعرفون الفنون العسكرية انتقدوا تصرفه فى تلك الموقعة وقالوا انه كان يمكنه ان يخرج منها بعدد من القتلى اقل مما حدث فى صفوفه وبصرف للذخيرة اقل مما صرفه (١) وهناك جانب لابد من انتقاده فيه وهو اصراره على اراقة كميات كبيرة من الدماء وقتله لاعداد كثيرة من الانصار فقد كانت تلك الموقعة واحده من اكبر المجازر التى عرفها التاريخ الحديث تشفى فيها كتشنر بقتـل ما لا يقل عن الخمسة عشر الفا • ولم ينج من الموت حتى الجرحى الذين كان يمكن اسعافهم • وقد عمد كتشنر الى اخفاء هذه الصوره البشـعة

---

(١) راجـع
Berry, Lecture Notes on The Sudan Campaign (Cairo 1921) P. 23

لهذه المعركه وذلك بعدم اظهار الاعداد الحقيقية للقتلى فظهر فى كثير من كتب التاريخ ان عددهم كان ثلاثة الاف فقط ، بينما هم فى الحقيقة اكثر من العشرة آلاف • (١)

وانتهى الى ان دراسة مسيرة محمود ود احمد دراسة تفصيلية جادة تلقى ضوءً على جوانب كثيرة من تاريخنا الحديث وتفرض علينا أيضا ان نأخذ كثيرا من التعميمات فى تاريخ السودان ببعض الحذر مثال ذلك الفكرة القائلة بان الخليفة عبدالله كان يمكنه ان يذهب الى الغرب بعد هزيمة جيشه فى كررى ويجمع جيوشا أخرى من هناك وكان يمكنه بهذا ان يضع كتشنر فى موضع حرج وقد اتضح لنا من مسيرة محمود هذه ان قبائل الغرب قد نالها من اذى جيوش المهدية ما جعلها غير راغبة فى مناصرتها وقد اجبرت على الهجرة بعد ان استعمل معها محمود كثيرا من اساليب الضغط ونستبعد قيامها لمناصرة الخليفة ان كان جاءها مهزوما وفكرة أخرى هى القصة المتداولة بين كثير من المؤرخين وهى ان الخليفه عبد الله كان قد ارسل الامير عبد الرحمن النجومى فى سرية ميئوس منها وحرمه من المؤن والذخائر وارسل معه عدداً قليلاً من الانصار كل ذلك لكى يتخلص منه ليضعف بذلك مقاومة « أولاد البلد » لحكمه ، وبالنظر لحملة الامير محمود ود احمد نجد انه لابد من اعادة النظر فى هذه الرواية اذ ان الظروف التى مرت بها هذه الحمله لا تقل صعوبه عن حملة النجومى من عدم المؤن والذخائر والضيق والحرمان واليأس ، ومحمود ود احمد هو ابن عم الخليفة وتربى على يديه ونستبعد ان يكون الخليفه قد أراد له شراً • ولذلك نستبعد أن يكون الخليفة قد ارسل اى جيش من جيوشه بغرض الخلاص منه ولكن كانت هناك عناصر ضعف كامنه فى طبيعة تكوين جيوش المهدية عامه وفى الحملتين اللتين اتجهتا شمالا خاصة ، وقد ادت عناصر الضعف هذه الى الحالة التى وصلت اليها جيوش النجومى وجيوش محمود •

---

(١) راجع رسالتنا للماجستير صفحات ٢٣٦ ومابعدها .